

حجر الزمرد المهجور

يسرى الأيوبي

في الأساطير القديمة أن ملكاً كان يحكم بيروت فازدهرت في عهده ازدهاراً لا مثيل له، وأصبحت درة المتوسط، وجسراً يصل الشرق بالغرب، وطافت سفنها العالم بعد أن دللت البحر تحمل إلى الموانئ الفرح والعطر والحرير وسحر الأبجدية والأرقام، وتعود بالكنوز وتبني القصور والمسارح والمكتبات والملاعب والحمامات. وكان للملك ابنة وحيدة هي في غاية الروعة والجمال، كما تقول الأسطورة، تخشع لجمالها وعفتها وحكمتها الفلوب. ولما أصبحت في سن الزواج تقدم لخطبتها الكبار والأعيان فرفضت، أوسم وأشجع الرجال فأبى. وأصبحت شاغل والدها وهاجسه. لقد حملت في صدرها سرًا لا تستطيع البوح به. وأحاطتها والدها بجوار كان قد رشاها ليعرفن ما بها، وكانت إداهن أدبية أربيبة، تفهم نفوس الناس، وسرعان ما حازت على تقىة سيدتها، وذات يوم في جلسة ود حميمة انتزع سرها من أعماقها. وما أن أخبرت الأميرة جاريتها بمكونات نفسها حتى حصل أمر رهيب. هدر البحر وماج وخرج منه تنين ترسل عيناه شرراً يحرق المدينة، ويرعد زفيره قاذفاً الصواعق، وكثرت ضحاياه، وكثير تخربيه للمدينة.. تتدفع الموجة الصاخبة المفترسة فتجتاح البساتين والمستحمين على الشاطئ، وتبتلع مراكب التجار والصيادين.. ولما التجأ الناس إلى بيوتهم وقبعوا داخل أسوارهم علت الموجات الغضاب، وهددت بإغراق المدينة ومسحها من الوجود.. وتساءل الناس عما يغضب التنين، وما الذي يسكن غضبه، وبعثوا إليه بالرسائل.. ولم تثبت الألغاز أن كشفت، وعاد الرسل مطأطئي الرؤوس مجللين بالعار. ابنة الملك عشت عبداً آباء.. وهذا ليقط التنين النائم في أعماق البحر ليمارس قانونه وسلطانه، ولن يسكن غضبه إلا أن يذهب العبد حتى النفس الأخير ويصلب، و يضحى بابنة الملك في كامل زينتها لتكون عروسأً للتنين.

ماذا يفعل أب في مثل هذه المحن؟! بعرشه يهتز من تحته، بشعبه المذعور الغاضب، بأصحاب السفن المقلوبة والحوانيت الفارغة والمسارح والملاعب والحمامات المهجورة، بوزرائه وبقيادة جيشه وحراس قواقله؟! والعرافون وضاربو الودع الذين يكشفون الغيب من مستشاريه يتبعون له بانهيار ملكه إذا رفض الانصياع لمшиئة التنين! فالحب ليس عاطفة لا تترك آثارها، ليس تمازج قلبين كما يقول الحمقى، أو حتى حناناً يمد يداً رفique لإنسان سقط في هوة المجتمع. لم يكن ماضي العبد يشفع له، حتى لو كان سيد قومه، فهو ابن هزيمة يصر قانون البحر على أن تبقى هزيمة أزلية، ويبقى صاحبها هناك أبداً الدهر في أغلاله وأسماله يجر معه إلى الهوة كل يد تمتد لانتشاله. إن عبودية الشاب قد حدثت لأنه هزم، لافرق في ذلك أكان المهزوم هو أو أبوه أو جده. أصبح لسيده حق الحياة أو الموت عليه، يحرره الموت أو النصر، ولا يسمح له بالحياة مع

الهزيمة الا في ظل العبودية. هذا هو ناموس الطبيعة، ركائز الكون التي حاولت تلك الفتاة بمحاقتها أو جهلها أو بفيض إنسانيتها أن تهدمها. فلا أمل أن يغفر لها الأب الملك، حتى لو كان قلبه يقطر دماً، وعليه أن يرميها طائعاً للبحر الغاضب..

عند فجر تنفيذ الحكم بالعشيقين المسكينين سللت ابنة الملك إلى سجن حبيبها في قبو القصر وتمكنت من أخذ مفتاح زنزانته من الحراس النائم وحراته. وعند طلوع الشمس رأى الناس الذين تجمعوا على الشاطئ لمشاهدة مراسم زفاف ابنة الملك من التنين، شابين يافعين يركبان زورقاً صغيراً ويتجهان إلى عمق البحر غير عابئين بالخطر الذي يتهددهما. وعرف الناس المذهولون أنهما ابنة الملك والعبد الآبق. لقد ضاقت بهما الأرض على رحبها ولم يجدا مكاناً يلتجئان إليه فقرراً مواجهة مصيرهما الذي كتب عليهما. وسرعان ما ارتفعت موجة هائلة ورأهما الناس يتعانقان فوق الموجة الصاخبة، ثم يغيبان في اللجة التي دفعتهما إلى الأغوار السحرية..

كان الناس وكأن على رؤوسهم الطير مشاهدين مغلوبين على أمرهم أو منفذى قرارات لا يستطيعون أن يعصوها، إذ بها ترتبط معيشتهم أو حياتهم. كانوا جميعاً في بلاء وكرب شديدين، تقىض قلوبهم أسى وحزناً على الشابين. هدأت سورة التنين بعد أن التهم جسدي الشابين الطاهرين الحالمين، ولم يسمع به أحد بعد ذلك حتى ظن الناس أنه هجر مربعاً في بحر بيروت إلى الأبد.

أما أولئك الذين هم ليسوا أصحاب قرارات أو سفن أو قصور، ولا يترددون على المسارح والملاعب والحمامات، فقد ساروا في ذلك اليوم الحزين في موكب جنائزي يجلدون أنفسهم بالسلسل حتى دميت ظهورهم وصدرهم. كانوا في تأنيب ضمير جماعي لأنهم صمتوا وخلعوا الشابين العاشقين. وكانت الجموع من الكثرة بمقدار، فلم يجرؤ أحد على منعها من السير في هذا الموكب..

وهكذا في كل عام، في الموعد نفسه صار يخرج الموكب الحزين بالسلسل التي يلفح بها الناس ظهورهم حتى يدموها إلى قبرين رمزيين أقامهما عند مصب نهر بيروت في البحر الأب الذي أفقده ندمه وحزنه على وحيدته حكمته واتزانه.. كان القبران من زمرد خالص كتب على أحدهما العاشق والآخر المعشوق.. وكانت موجات البحر تتدو وتتروح فوقهما، ونما عليهما الطحلب، ثم نسي الناس جوهرهما وان بقوا يخرجون في موكب كل عام يحجون إلى تلك البقعة التي يحملون لها القداسة دون أن يدركون جوهرها أو يعرفوا قيمة حجارتها التي اختبأت تحت الطحلب، ومع الزمن نسي الناس قصة العاشقين ولكنهم ظلوا يأتون في الأعياد الدينية إلى تلك المنطقة يتبركون بها، ويعقدون صفقاتهم التجارية ويقيمون أعراسهم ويولمون أو يتجمعون لللزحة وهم يظنون أن القبرين المتواضعين لولبين صالحين..

جاء ذات يوم مستشرق قرأ في المخطوطات القديمة عن وجود حجري الزمرد اللذين زاد تقادم العهد من قيمتها التي لا تقدر بثمن. ولما تأكد من وجودهما في مكانهما عاد بفرقة تنقيب عسكرية قرب القبرين وأخذت تتوسطان بأنها تتقدّم عن الآثار في المنطقة وفي الليل نقل الحجرين من مكانهما ثم قام بتهربيهما إلى الغرب.

وتقول الأسطورة، وهو أذن أرويها كما سمعتها وتناقلها الناس جيلاً عن جيل، بأن المستشرق قد ترك مكان الزمرد حبراً عاديًّا كتب عليه هازئاً: "يأهل بيروت أين النظر، ألا تميزون الزمرد من الحجر؟" ..

ومضى زمن آخر نسي الناس فيه كل هذا، وقل ارتياحهم للمكان وهجروه.

* * *

مرت الأيام والسنون والناس في بيروت مطمئنون لا هون يأكلون ويشربون ويتسالون، يبنون بيوتهم ويزرعون برقالهم ويمارسون حرفهم وصناعاتهم، ويقطدون لتجارتهم ومهنهم ووظائفهم، يستقبلون سائحيهم، ويقدمون مهرجاناتهم. عاشوا يتحابون ويتباغضون، يتقون ويخالفون، ويتعاونون ويتشاركون، وكانوا يصدقون ويذبذبون، ويتبعدون ويلهون، كما يفعل الناس في كل زمان ومكان. كانت المدينة الذهبية، درة المتوسط الشرقية تستيقن في ظلال أرذلها وبرقالها هائلة لا تشعر بالخطر الذي يقترب منها. أخذت النذر تتراءم عند الأفق غيوماً سوداء شيطانية تتبع من البحر الساكن سكوناً لا عهد للناس به، وكان أمواجه تخاف مما يحمل بطنها. وفترت مخلوقاته، وعادت شباك الصيادين خاوية من الأسماك وحتى فناديل البحر والأعشاب البحرية. ومن أعماق البحر سمع صوت هدير مكتوم..

وقف الناس على الشاطئ يراقبون بقلق هذه الظاهرة الغربية، ولكن مررت أيام ولم يحدث شيء ف nisi الناس أمرها وعادوا إلى أهواهم ومشاغل حياتهم اليومية.

في الهزيغ الأخير من الليل، ترددت صرخة بشريّة رهيبة حملتها الرياح إلى كل نافذة وزاوية من زوايا المدينة النائمة:

- لقد عاد التنين إلى شواطئنا.

وأفاق الناس على ضربة هائلة هزت المدينة. التنين يريد أن يوسع حدود مملكته البحرية حتى تشمل البر والجبل. ان هذا التنين قد التهم ثلاثة مليوناً من الأسماك والحيوانات المائية في العام الذي مضى: أسماك من كل الأحجام والألوان، رعاد وشبوط وسمك موسى، وأسماك طائره وذات سيف وإير مسمومة

وقرش، ودلافين وأطمر.. يوم استقر في المملكة البحريه متسلباً إلى شعابها المرجانية أصبحت له تلك السمعة السيئة ولقب بملك البحار، وحافظه البحرين وحسب حسابه القرش والأخطبوط.. كان شعاره تجاه الأسماك أن السمكة الطيبة هي السمكة التي تتشوى وتتووضع في طبق ترینها شرائح الليمون والثوم والبقدونس النضر وتتفوح منها رائحة تثير شهيته. وأبغضها إليه تلك التي تروغ منه وتزوغ ولا تمكنه من نفسها. كم كانت تثير غضبه تلك الأسماك العاصية المخربة عاشقة الحرية في بحر الظلام المليء بالكمائن حيث تتخطى الأسماك الصغيرة وهي تصارع صامنة الموت والطحن في أشداق فاغرة تصبح بدورها لقمة سائحة لشدق أكبر. كل شيء يجري في صمت، صمت البحر العميق، لاجنائز دفن، ولا مناد يطلب الرحمة لمن حان حينه، ولا قارئ قرآن يودعه الوداع الأخير بالتراتيل، ولا أجراس كنائس تتعيه.

يندفع تنين البحر بقوة مجنونة ي يريد ضم البر إليه، فمنذ الطوفان الأخير تملكه هاجس إغراق العالم بـطوفان جديد، بـعالـم مـائـي يـغـطـي رؤوس الجـبـالـ، وـتـحـوـيلـ الـكـاثـنـاتـ الـبـرـيـةـ الـتـيـ تـسـيرـ عـلـىـ قـمـيـنـ وـتـنـفـسـ بـرـئـتـيـنـ إـلـىـ ذـوـاتـ زـعـانـفـ وـغـلـاصـمـ؛ عـالـمـ مـنـ اـخـرـاعـهـ وـمـنـ اـخـتـيـارـهـ يـسـرـيـ عـلـيـهـ قـانـونـهـ الـذـيـ لـاـ يـرـيدـ لـلـعـالـمـ قـانـونـاـ سـواـهـ، ضـارـبـاـ عـرـضـ الـحـائـطـ بـكـلـ ماـ اـشـتـرـعـ الـإـنـسـانـ مـنـ نـظـمـ تـجـعـلـ حـيـاتـهـ أـكـثـرـ إـنـسـانـيـةـ وـعـدـلـاـ.

لقد سقطت جزر كثيرة في أعماق المحيط وغمرتها المياه وتحولت كائناتها البرية إلى كائنات س מקية . وكانت الأمور تجري على منوال واحد : تفتقن الصخور بفعل مادة زمردية ذات قوة انشطارية هائلة هي مليون مرة أقوى من البلوتونيوم والكوبالت ، وتبدأ الزلازل تحتاج الأرض والناس والعلاقات . وحتى في المراحل الأولى تشق الأرض وتبتلع كتل الإسمنت المشيدة التي تتهاوى لأنها قصور رملية يبنيها طفل لا ي على الشاطئ وتتدفن معها سكانها في باطن الأرض . وتنتشر الحرائق فيقذف سكان العمارات أنفسهم مع أطفالهم إلى الأرض لأن صدمة الموت من على أهون من عذاب الموت احترافاً . ويبدو الأمر كله كأنما هو من فعل العناصر الطبيعية المحلية وكأنما الأرض تلفظ من عليها بعملية انحلال هائلة . وبفعل المادة المشعة التي يستشقها الناس تبدأ لديهم أمراض شعور بالاختناق كأنما هو وباء غريب يصيب الرئتين ويعطل عملهما في كل إنسان . ثم تأخذ الأطراف بالضمور التدريجي حتى تتلاشى تماماً عند البعض . فالعملية لاتحدث عند الجميع في آن واحد . وفي فترة التشکل ينقسم الناس إلى فئتين : كائنات بريئة وكائنات بحرية ، وإلى عدد لا يحصى من كائنات بين بين تفقد بعض أعضائها وينبت لها أعضاء أخرى . فإذا ما اكتملت صورتها الجديدة أصبحت الحياة مستحيلة عليها في البر ، وألقت بنفسها في غياوب البحر حتى قبل أن يأتي الزلازل الكبير على ما تبقى من آثار البر الصامدة . وطبعي أن العلاقات أيضاً كانت تصيبها الحالة الانشطارية تلك ، ورجال القانون كالأطباء أصبحوا يواجهون قضايا

غريبة شادة هي نتيجة الانشطار إلى بري وبحري لا يمكن تطبيق القانون المعروف على حالاتها الخاصة، حتى أصبحت تلك القضايا الشادة هي السائدة وانعدم معها القانون. زيجات تنهار، وخطوبات تنفص، وأسر تفكك، وشركات تقض، وثروات يعاد توزيعها لصالح الكائنات البحرية.

نتين اليوم لم يعد يسكن غضبه فتاة نفية صادقة تلقى في أشداقه، إنه يريد ابتلاع البر كله في مملكته البحرية. كتب كتب كثيرة تصف عاداته وتحركاته وسكناته، وعدد ضحاياه والمدن التي دمرها، ولكن لم يتوصل أحد إلى طريقة للخلاص منه، بل الأنكى من ذلك أن أناساً كثيرين كانوا يقترون الشر وينسبونه إلى التنين ويلعنونه مع اللاعنين كما جرت العادة في لعن إبليس عندما يقترن البشر الحماقات. وآخرون يبرئونه من كل ذنب ويقترون الطرق للتفاهم معه وتسليمه كل يوم عدداً معلوماً من الضحايا فيكف عن غضبه المزمن وجشه الخبيث. بل إن هناك من اقترح تحكيمه في الحالات الانشطارية التي أصبحت شاغل الطب والقانون والناس. وقد عقدت مؤتمرات كثيرة لهذه الغايات لم تسفر إلا عن مزيد من البلبلة في الرأي ووهن في العزيمة والشરذم والقتل. وكان التنين يضحك في سره إذ أن حماقة الناس قد مهدت الطريق لضرفهم والانتصار عليهم. وصار من أكثر المشاهدين حماساً لمواكب جلد النفس بالسلاسل، هذا الطقس القديم الذي عاد الناس إلى إحيائه بعد أن عفا عليه الزمن.

وانطلقت كذلك الجن من عقالها وساكنت البشر تحصي أنفاسهم، وتولدت يوم خرجت إلى سطح الأرض في متواطية هندسية، وأصبح لكل إنسان قرين، طبقة كاملة من الأشباح العالمية تتحذ صفات البشر وما هي ببشر. وتزاوجت الجن وتتكاثرت وكلما قامت حفلة زفاف متربفة دفع تكاليفها المصرف الدولي من الفوائد التي يتقاضاها من الناس . لقد أصبح للجن ذرية تغطي العالم من شرقه إلى غربه. كانت لها أسنان قارضة كجرذان الحقول تفرض كل شيء بدءاً من الشرف وانتهاء بسنابل القمح.

وضرب الجفاف الأرض، سبع سنوات عجاف تليها سبع آخر. تطالعك في الشاشة البيئية كل مساء الأجساد العنکبوتية لأطفال جياع، أرواح ضائعة منفية، أولف منهم ينقرضون قبل أن تشتد سوادهم لزرع الحقول ثانية. وأخذ الناس يتلقون بالعشرات، فمن لم تحصده النار حصدته المجاعة أو فتك به الأوبئة.

نادي المنادي بعد موهن من الليل: "التنين عند شواطئنا! وأفاق أهل بيروت مذعورين على هزة أرضية خلقت بعض الضحايا من مخلوقات بريئة وأخرى بحرية دون تمييز، ولم يشعر بوطأتها الكثiron، ولكنها كانت تتذر بالزلزال الكبير الذي يتحسب له الجميع وبزبرع في النفوس قلقاً وهاجساً دائماً. فكل فرد يشعر في أعماقه بشوكة تخزه في فرجه ولذته ونجاحه، إنه انعدام الأمن الذي يقود وبالتالي إلى نوازع الأنانية والفردية وفساد القيم. وأخذ الناس يتكتلون لا

كمخلوقات بحرية وأخرى بحرية فحسب بل كجماعات وشراذم من هذه الفئة أو تلك..

كان التحول البيولوجي قائماً على قدم وساق، فكم من من قزم أصبح علماً وكم من علماً قدماً. وكانت الكتل تغير مواقعها، فالصديق يصبح عدوًّا، والعدو صديقاً. وكانت المخلوقات البحرية تتذكر في أشكالها، وأصبح من عادتها أن تلتصق على أجسادها أطرافاً اصطناعية مكان تلك التي ضمرت أو تلاشت. وتم تأسيس مصنع لهذا الغرض كان إنتاجه أكثر السلع رواجاً، وكانت صناعته من الانقان بحيث لم يعد التمييز بين المخلوقات البرية والبحرية سهلاً، ولا يدري أحد من الحقيقي ومن المزيف ومن هو بين بين. وظهرت فرق مسلحة من جميع التشكيلات حاصرت بيروت، جميعها تدعي الحق في قيادتها وتطلب منها الآلات لحمايتها، فكان على المسافر أن يمر بالحواجز الأمنية الكثيرة التي اصطنعتها ويرضخ لمطالبتها قبل أن يدخل بيروت أو يخرج منها.

وكان التنين يتفاوض معها جمِيعاً، كل فرقة على حدة:

- قدمي لي مزيداً من القرابين والأضاحي، فأكف عن غضبي وأترك بيروت في سلام، بعد أن أعطياك مفتاح المدينة وأحكمك في الأرض وأسيدك على منافساتك. ولقد أثار هذا التفاوض شهوة كل فريق ليستأثر وحده بنتائج المهمة. فمضوا يتخطفون بعضهم بعضاً وينهبون بيوتهم ومتاجرهم ومزارعهم ومصانعهم وكل ما تقع عليه عين الغريم لا يترى عن نهبه. ويقدمون أسرارهم أضاحي ومنهوباتهم قرابين للتنين. وكانت شهية التنين تزداد كلما ازداد ما يقدمه له الناس. فتية تضح الحياة في محياهم، وتمثل قلوبهم حماسة يقادون مكبلين كل يوم إلى حيث ينتظرون مصير رهيب وفتيات في عمر الزهور يزفون على عجل إلى التنين، ورجال انتزعوا للتو من خدور زوجاتهم، ونساء اختطفن من أطفالهن. شيوخ وعجائز أغلقوا عيونهم على حزن كبير، وأطفال ما كادوا يفتحون أعينهم على هذه الحياة حتى واجهتهم ب بشاعتها. بشر وحيوانات وثمار وأشجار وحبوب وبقول وذهب واللمس ودولارات وليارات ومسجلات وتلفزيونات وأجهزة فيديو وسجاد عجمي وثيريات ذهبت إلى جوف التنين، حتى رخام الأرض وخشب النوافذ والأبواب. ولم يكن يعف عن شيء : الكلاب والقطط والجرذان وأكياس القمامنة والأسمال البالية، ولم يعد أحد يدري متى سيُشبع، بل لم يجرؤ أحد أن يهمس بهذا السؤال لنفسه خوفاً أن يبلغ أسماع التنين.

في يوم من الأيام تناقل الناس خبراً أن ينابيع المياه تفور قرب مصب نهر بيروت. في خضم الأحداث الجسام لم يعبأ كثيرون بهذا الخبر، ولكن قلة من الناس تجمعت عند مصب النهر. كانت الينابيع تفور وتملاً الأرض بخيوط مائية تتقاطع وتتلاأل تحت أشعة الشمس الغاربة. خيم السلام والسكينة على الأجواء، وفي وسط

هذا المشهد البديع بدت واضحة كننان متفحمنان مستطيلتان. تقدم الناس منهمما
عابرين الجداول المترفرقة وتحلقوا حولهما.

- هذان قبرا العاشق والمعشوق!.

تذكر ذلك الشيوخ المسنون. وتقدم فتى صغير وصار يزيح بيديه الطحالب
السوداء المحترقة، فبان الحجران وعليهما كتابة حفرها أحد ما:

لن تعم بيروت بالسلام

حتى يعود الزمرد للمقام

* * *

ومن أعمق البحر صدرت حشرجة مكتومة!.